النظرية السلوكية : نقد وتقدير

خاتمة البحث

لقد بينا في المقال السابق ما تؤاخذ النظرية السلوكية عليه ، وهو بالاختصار ان هذه النظرية تدعو الى طريقة واحدة لا غير — تدعو الى مشاهدة سلوك الانسان او الحيوان في الظروف المختلفة ، وترفض ما عدا هذا ، فكل ما استعصى على المشاهدة المادية من سلوك الحيوان او الانسان ترفض ان تبحث فيه باي وجه من الوجوه ، لا بل تنبذهُ ، وتدعوهُ تدجيلاً وخرافة وشعوذة . كان الامر يهون علينا نوعاً ما لو ان السلوكية كانت تدعو الى التزيث والعام الفكر في الامور النفسية التي لا تقع تحت حس الباحث النفسي ومشاهدته ، وكنا نستطيع ان نجد لها عذراً فيما لو فعلت هذا بذاتهِ من غير ان تزيد عليهِ وتمن في الاعنات والارهاق ، ولكنها لا تفعل ؛ بل تتعسف وتقطع برأي ، وتنكر ظاهرة وجدنا فيما سبق انها ضرورية لازمة لكل باحث نفسي وللسلوكيين ايضاً

ما لا نشاهده لا يدخل في علم النفس — هكذا تقول السلوكية — ونحن لا نستطيع ان نشاهد سوى سلوك الانسان ، واذن فسلوك الانسان هو موضوع علم النفس لا اكثر ولا اقل

موقفها ازاء التعقل والفكر

ولكن ما قولكم في العقل ؟ تجيب السلوكية عن هذا قائلة « ماذا ؟ لا عقل هنالك ولا يحزنون . هذا تدجيل وشعوذة ، ليس لهذا الاصطلاح معنى على الاطلاق ، ان هو الا تصورات واوهام ميتافيزيقية انحدرت من الفلسفة الى علم النفس انحداراً . الا لعنة الله على الفلسفة ، انها اصل كل بلاء ، ما اجرأها على الواقع وعلى الظواهر الطبيعية ترتب فيها وتبوب وتخلق ما يروقها في عالم الاشياء من غير حسيب او رقيب ، والعقل هذا من اختراعها لا غير »

حسن . واذن ما رأيك ايتها السلوكية في التفكير ؟ بالطبع انت لا تنكرين هذه الظاهرة لانها تفقأ عين كل مكابر . ليس من شك ان بعض الناس على الاقل يفكرون ! وان كان كثيرون — ومن ضمنهم علماء اعلام ايضاً — يعتقدون ان كل الناس يفكرون ، وان كثيراً من الحيوانات العليا تفكر ، لا بل ان كل الاحياء تفعل ذلك . ليس هذا فقط ولكن البعض ومنهم علماء ايضاً — يعتقدون ان الذرات — لا بل الكهارب او جواهر المادة الدقيقة تفكر . ذلك لانها تريد وتتصرف تصرفاً يدل على الحرية وعدم التقيد في احيان كثيرة . ومع ذلك لادعي للدخول في امثال هذه المناقشات العقيمة ، فكل ما نريده من السلوكية هو ان تجيب عن هذا السؤال « كيف نعلل التفكير اذا كان العقل خرافة كما تقول ؟ »

تقول السلوكية أن التفكير ليس من العقل لان هذا لا وجود له . ولكي نفهم طبيعة التفكير يجب ان نلجأ الى المشاهدة كما يلي ، وليس من شك في ان المشاهدة تدلنا على ان موضع التفكير هو في المخ ، اي في المادة التي توجد عادة داخل الجمجمة وبالمشاهدة ايضاً نرى انهُ يصحب التفكير حتماً حركات سريعة بنتظمة في ذرات المخ ، ولن نجد لهذه القاعدة شذوذاً ، ومتى كان الامر كذلك فما تدعونه انتم عقلاً ادعوه انا سلوكا والعقل لا تستطيعون ان تبرهنوا على وجوده الاّ بالسفسطة والكلام الفارغ ، واما حركات الذرات فهذا ما استطيع أن ابرهن عليه بالواقع المحسوس . وبما لا يمكن لانسان يملك حواسه ان يكابر فيه . ليس هذا فقط ولكن هنالك ايضاً ظاهرة تصحب التفكير في كل الحالات الاخرى ، ذلك ان الاوتار الصوتية الموجودة في حلق الانسان تتحرك هي الاخرى بشكل يستطيع اي انسان ان يشاهدها ويستطيع الانسان نفسهُ ان يحسّها متى وضع اصبعهُ على هذه الاوتار من الخارج . وعلى هذا نحن نؤمن ان التفكير هو كلام خفي ينقصه الهواء حتى يُسمَع ، هذا فصل الخطاب عندنا ، وأما انتم فماذا تستطيعون ان تقولوا سوى ان تزعموا غير مستندين على اساس بأن للانسان عقلاً وان للحيوان عقلاً ، اما ما هو هذا العقل فانتم عاجزون ولا تستطيعون ان تحيروا جواباً ؟ »

وعلى هذا القياس توغل النظرية السلوكية في انكار معظم الظواهر الاخرى . فالواعية واللاواعية اي الشعور واللاشعور (Conscious and unconscious) لا وجود لهما الاّ في مخيلة المنفلين امثال ادلر ويونج وماجد وجال ، وأما السلوكية فهي من هذا التدجيل براء . وماذا تريدون ايضاً ؟ العاطفة ؟ هذه نتيجة لحركات بعض الغدد ومفرزاتها ، وهذه ايضاً يمكن مشاهدتها . والذاكرة ؟ هذه ايضاً خرافة لا وجود لها على الاطلاق . والغريزة كلام فارغ لم نستطع أن نتوصل الى اثبات شيء منها بالمشاهدة . ثم ماذا ايضاً ؟ الدين والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد والانثروبولوجيا كل هذه وغيرها كثير كلام فارغ ومضاربات ميتافيزيقية اوجدتها الفلسفة الملعونة ، والحق ان الفلسفة هي الشيطان الرجيم الذي أغوى الانسان وأوقعهُ في هذا الشرك ، ولسنا نجد من كل هذه ما يستحق الاحترام سوى العلوم الطبيعية والكيماوية

يرى القارىء من كل هذا ان السلوكية لم تعد طريقة علمية فحسب ، بل تصرُّ على أن تصير فلسفة مادية لها رأي معلوم في الكون بأجمعه . لم تعد علماً متواضعاً يعرف لنفسه حدودها كباقي العلوم ولكنها تريد ان تقيم نفسها للحكم على الكون بأجمعه ، وعلى ظواهره المتعددة المتباينة ، تريد ان تجمع علوم الارض تحت جناحها وتحكم لهذا بالبقاء وعلى ذاك بالفناء . ونحن لسنا نفهم العلوم على هذه الكيفية او بهذا الوضع ، وانما نعلم ان لكل علم

دائرة محدودة يعمل فيها . حقاً ان هوامش هذه الدوائر متلامسة متداخلة ولكن منطقة اختياد هذه معترف بها من جميع العلوم على السواء ، وكل منها تحترم منطقة الاخرى وتتعاون معها على هامش المنطقة ، وليس هذا شأن السلوكية ، فانها لا تعرف لنفسها حدوداً ولا تعترف بوجود العلوم الاخرى اصلاً ، وحتى ما لا يدخل في باب العلوم مثل الدين والفلسفة والاخلاق ethics والفن esthetics لا ينجو من تعسفها . ومحصل القول ان السلوكية لا تكتفي بأن تكون علماً وانما تريد ان تتفلسف

كنا بسبيل درس علم النفس في كلية المعلمين بجامعة ييل ، وكنا نبحث فيما تزعمه السلوكية من ان التفكير ليس شيئاً سوى حركات الاوتار الصوتية في الحلقوم ، وأراد الاستاذ مارك ماي Mark May ان يتهكم على السلوكية ويفكه بنقدها نقداً لاذعاً فقال « تريدنا السلوكية على ان نؤمن معها بأن التفكير هو حركات الاوتار الصوتية لان هذه الحركات تصحب التفكير دائماً ابداً . حسناً ، ولكني انا لا افكر من غير ان احرك اصبع قدمي ، ففي حالتي انا على الاقل استطيع ان ازعم ان التفكير ان هو الا حركات اصابع القدم ، اليس كذلك يا سلوكية ؟ »

كنت اقرأ كتاباً لبرجسن الفيلسوف الفرنسي لا اذكر اسمه الآن ، ومن ضمن ما تناوله هذا الفيلسوف مسألة التفكير فقال هذا الكلام او ماهو في معناه : لا يمكن لنا ان نسلم ان العقل هو نتيجة لحركات ذرات المخ . هذه النظرية المادية لا تجد ما يسندها من ظواهر الكون . حقاً لسنا نستطيع ان نسلم بأن الذرات المخية تتحرك عندما يؤدي العقل وظيفته ، كما ان الهضم يؤدي وظيفته بحركات في القنوات الهضمية . ومن يزعم ان حركات ذرات المخ هي الاصل في العقل شأنه شأن من يزعم ان المعدة الاصل في الهضم وانه لولا المعدة لما كان هناك هضم ، وهذا الزعم الاخير لا يستقيم مع حقائق الحياة لان كثيراً من الاحياء تهضم الطعام من غير ان يكون لها معدة اصلاً . ويجدر بنا ان نزعم ان المخ هو اداة العقل للتفكير ، كما ان المعدة هي اداة الهضم للحياة . وليس من المستبعد انه لو لم يكن المخ موجوداً قط لاوجد العقل لنفسه اداة اخرى يستعملها في التفكير

نحن نميل لان نأخذ بنظرية برجسن وباقي الفلاسفة الذين ينحون منحاه في التفكير فنظرية الحياة Vitalism اقرب الى المنطق والتفكير السليم من النظرية المادية التي تريد السلوكية ان تقنع العالم بصحتها . والحق انا لا نسلم للسلوكية بالمركز الذي تحب ان تدعيه لنفسها ولا يطاوعنا عقلنا على ان نقبلها كنظام فلسفي للكون يتناول كل ما فيه من علوم

وفلسفات وانما نقبلها فقط على انها طريقة علمية لا غير ، وبعبارة اخرى تتفق مع جارسن Winfred Ernest Garrison الاستاذ بجامعة شيكاغو على ان هذه النظرية لا يجب ان تدعى سلوكية بل علم السلوك (Not Behavionism but Behaviorology) فهي طريقة لعلم النفس وليست علم نفس مستقل ، فبالاحرى لا يمكن ان تكون فلسفة

اظنه واضح الآن بأن السلوكية ضلت السبيل ، وان اخطاءها التي مرت بنا في هذه المقالة كافية لان تحملنا على الاحتراس منها في مواضع كثيرة فلا نذهب وراءها الى اقصى ما تريد ان تذهب بل يجب ان نحترس ونتئد في السير خلفها والنهج على منوالها ، ونأخذ كل ما تقدمهُ لنا برويه واناة وبتمحيص كثير

أثرها في البحث النفسي والتربية

بعد ان وضح هذا ، يجب ان ندل على فضائل هذه النظرية ، وعلى الخدمات الجليلة التي قامت بها لعلم النفس ، وكيف انها في الواقع كانت ثورة عنيفة على الطرائق القديمة البالية التي اصرَّ علم النفس على استخدامها فيما مضى ، تلك الطرائق التي كانت اقرب الى الرجم بالغيب والخيال منها الى الطريقة العلمية التي تعتمد على المشاهدة والاختبار

وأول هذه الخدمات اصرار السلوكية على اجراء التجارب في المعامل ومشاهدة سلوك الانسان ، وتدوين وجوه هذا السلوك من غير ان نلجأ الى الفروض والاحتمالات والاستبطان فقط . ذلك لان الاستبطان يتناول شعور الانسان الداخلي ، وخوالج نفسه التي لا يمكن لعالم من العلماء ان يتوصل اليها بالمشاهدة وبالتجربة ، ثم ان النتائج التي نصل اليها بالاتجاه الى الشعور الداخلي للانسان لا يمكن ان تعمم كباقي القوانين العلمية ، فما اشعر به انا في ظرف معين خاص بي انا ولا يمكن لانسان ان يشعر بمثله ، وليس هذا فقط بل لا يستطيع العالم ان يتوصل الى هذا الشعور — شعوري انا وشعور غيري — من غير ان نخبره نحن به ، وقد لا نكون نحن من علماء النفس فلا نستطيع ان نعبر عن هذه الخوالج النفسية بطريقة وثيقة ، ليس هذا فقط ولكنهُ يتعذر على اي عالم أن يجري تجاربه في هذه ، فلا يستطيع ان يطبق ما يراه فينا على ما يراه في غيرنا لانهُ لا يرى هذا ولا ذاك ، ومن ثم لا يمكنهُ ان يستخرج من هذا الشعور قانوناً عامًّا يطبق في جميع الحالات ، وليس يخفى بالطبع ان قيمة القوانين العلمية هو في امكان تطبيقها في جميع الحالات

من هذه الجهة اذن نحن نعطف على السلوكية ، وندعو الى الاخذ بطريقتها خدمة لعلم النفس . ونحن لا نرفض الاستبطان رفضاً باتًّا قاطعاً كما تفعل السلوكية ، فهذا في رأينا من المستحيلات كما بينا في هذه المقالة وفي المقالات السابقة ، ولكننا ندعو الى استخدام طريقة السلوكية الى اقصى ما نستطيع استخدامها ، ونستخدمها بغير هوادة او لين ، ثم نلجأ الى

الاستبطان ، او الى استيضاح الانسان موضوع البحث عن شعوره عند ما يتعذر علينا الالتجاء الى السلوكية والوصول عن طريقها الى الحقائق التي نريد ، ثم نؤمن ايضاً بأن هنالك حالات كثيرة لا تستطيع السلوكية ان تصل اليها

هذه اولى الخدمات التي تؤديها السلوكية للعلم ، وهنالك خدمة اخرى اجل واكبر في نظرنا ، لا بل نستطيع ان نزعم انهُ لو لم تكن السلوكية قد ادت غير هذه الخدمة لكفاها فخراً ولحقَّ لها ان تولى الفضل الذي تستحقهُ والذي نريد ان نوليها اياه ، واليك التفصيل

كان من شأن الطريقة القديمة في علم النفس انها تأخذ الانسان على انهُ كائن حي يولد الى هذه الدنيا مستكمل الشروط مزوداً بكل العناصر التي تصير منهُ انساناً فاضلاً او شريراً كما قدر له ان يكون وبحسب الاستعدادات التي ورثها من ابويه وجدوده ، فالطبيعة قوية قاهرة ولا يستطاع تغييرها او تبديلها ، وكل ما يستطيع المربون ان يفعلوه هو ان يلجموا هذا الانسان ويقيدوه بالقوانين المدنية والعرفية التي تمنع طبيعته عن الطغيان والفوضى هذا لان المولود مسلح بكل انواع الغرائز الضارة من حب السيطرة الى حب التملك الى حب الذات ، وكل هذه لا تستقيم مع النظم الاجتماعية ، وكل ما تستطيع التربية ان تفعله هو ان تلجم هذه الغرائز وتكبتها بالتخويف تارة وبالارهاب تارة اخرى حتى لا تطغى وتحدث الفوضى في هذا المجتمع

كان هذا هو الشأن في علم النفس الى ان اتت السلوكية بنظريتها الجريئة التي وجدت لها سنداً من التجربة والاختبار ، ولنظريتها هذه قائمة على انه يستطاع التحكم في تصرفات الانسان عن طريق البيئة ، فهو لم يعد يولد مجهزاً بكل عناصر الاخلاق والشخصية . وانما يولد وله الاستعدادات التي قد تصنع منه رجلاً فاضلاً نافعاً للجماعة ، او شريراً لا يرتاح الى اقل من الحاق الضرر بهذه الجماعة ، وبعبارة اخرى نجد ان السلوكية وسيلة لضبط السلوك Method of Control يستطيع معها العالم النفسي ان يوجه الانسان الى الوجهة التي يريد . يقول وطسون «اعطني اطفالاً اصحاء سليمي البنية وأنا اصنع منهم الرجال الذين تريد ، استطيع ان اصنع من هؤلاء فلاسفة ، ورياضيين وعلماء ، ورجال ذوي اخلاق متينة ومجرمين اعداء للانسانية» . لقد اعانتنا السلوكية ، وانقذتنا من الجبرية Determinism التي وضعتنا فيها النظرية القديمة ، ثم انها سلحتنا بالوسائل الناجعة لتربية الاطفال ، كل هذا فعلته لانها اظهرت فعل البيئة في حياة الانسان ، هذا العامل الذي كدنا نغفله من حسابنا

اني اؤمن بالسلوكية كطريقة علمية وكوسيلة للتحكم في السلوك ولكني ارفضها كفلسفة وكنظرية عامة للكون

يعقوب فام
استاذ في التربية من جامعة ييل